مـــــذكـــــرات رشـــــدي الـعـــــامـل:

حـكـــايـــات طـــائـــر الـفـــرات

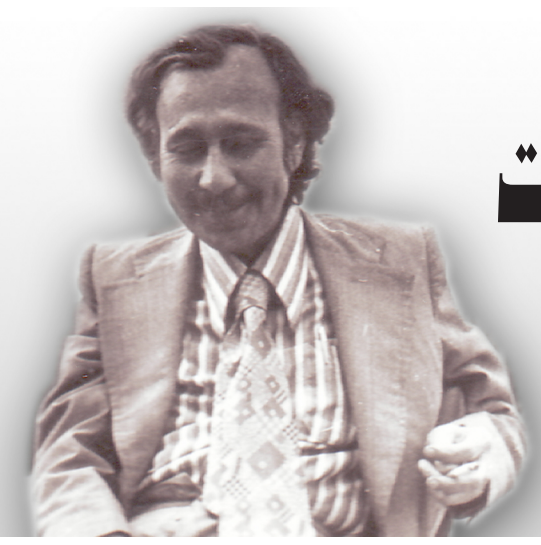

يسرد رشدي العامل ومضات سيرته الذاتية متأملاً مساراته الانسانية والسياسية والشعرية ومحققا في انثيالات عالمه الخاص. والمدى إذ تنفرد بنشر أوراق الشاعر ونشرها على حلقات اسبوعية فانها تنوه بأهمية (اعترافات) العامل كونها وثيقة تاريخية وابداعية لشاعر كبير.

المدى الثقافي

-الحلقة الاولى-

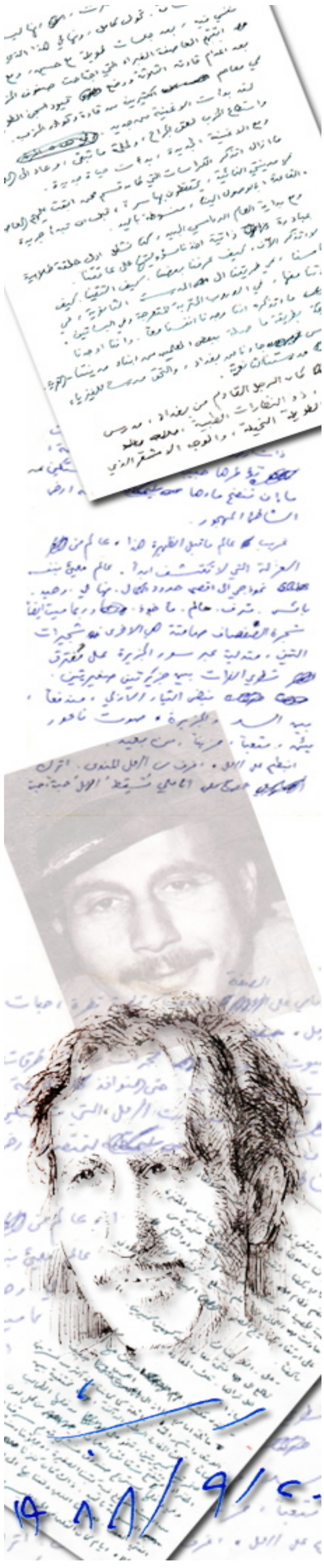

كم من السنوات انطوت بين خطى الصبا ، وزحف الكهولة؟

امامي على الضفة ارتفعت، قطرة قطرة، حبات الرمل.
بيوت مسورة مجرات رملية. طرقات ذات ارصفة، قباب. حتى النوافذ الفارغة، تؤطرها حبيبات الرمل، التي تستكين ما إن تنضح ماءها لتمتصه أرض الشاطئ المهجور.
غريب عالم ما قبل الظهيرة هذا، عالم من العزلة التي لا تكتشف ابداً. عالم مليء بنفسه نموذجي الى اقصى حدود الكمال. نهائي. وحيد. بائس. مترف. حالم. مأخوذ وربما ميت ايضاً. شجرة الصفصاف صامتة هي الاخرى، شجيرات التين، متدلية عبر سور الجزيرة على مفترق شطري الفرات بين جزيرتين صغيرتين.
نبض التيار الازلي، مندفعاً بين السد والجزيرة، صوت ناعور يئن، متعباً، حزيناً، من بعيد.
انبطح على الرمل، اغرف من الرمل المندى، اترك أناملي تسقط الرمل حبة حبة.
أوزع الرمل على بيوت لا أعرفها. بيوت الرمل تلك. اسمع اصواتاً. لا اسمع شيئاً.
عذابي تركته. كل حزني هناك. قصائدي وأمي. كتبي وحانات الليل. أين المرأة التي تنتظر؟
بغتة..
عَبَر المياه، مياه الفرات التي تمتد بين جزيرتين. ناداني:
.. بابا.. با.. با.. بابا.. با... با...
خبطت الرمل فاستقر مع الرمل.
جاءني سابحاً. عابراً بين جزيرتين.
ضاحكاً بدا. مبللاً بماء الفرات. صبياً.
آخذاً بعروق الصفصاف.
- محمد ؟
- هناك.
زحف إلي:
- بابا.. تكتب؟.. على الرمل تكتب؟
- لا...
- بابا.. ما تفعل؟
- أرسم ..
- ها..
- أرسم..
ضحك لي.. اسنانه كانت بيضاء..
ضحك:
- بابا.. ترسم؟
- هـا.. ارسم.. انظر علي.. مدينة خربناها.
- بابا... با..
- هيا.
جدفنا في الزورق. وصلنا في البيت القديم. تناولنا الطعام على الأرض. نمنا.. تسللنا في المساء. علي ومحمد وانا الى الجزيرة
جزيرتنا في الفرات. كانت الشمس ماتزال تقاوم في الافق.
الضوء الذي يذبل. والوهاد العالية وراء النهر المتعرج. شعاع الشمس يرحل.
يقولون ان الغجر يلاحقون غروب الشمس في هجرتهم صوب الغرب.
منذ متى كنت هنا آخر مرة، متى هاجرت ؟
كم من السنوات انطوت، بين خطى الصبا، وزحف الكهولة؟

هناك كان الوهم هو الحقيقة

امس جربت ان ارتقي تلة عالية، من تلك الوهاد الجرداء التي كنا ندعوها جبالاً.
ولداي ركضا. ارتقيا بسهولة على جانب من المقبرة التي تضم عظام الاجداد، منحدرة من القبة الجصية التي شقق المطر جدرانها، والبرد والثلج. حاولت اللحاق بهما، فلم استطع. ركبتاي لا تقويان على ارتقاء تعاريج الصخور البيضاء. ناديته. جاءني راكضاً.
- علي.. انظر هناك.
تطلع الى فتحة مغارة بين كهفين كبيرين.
- هل تراها.. تلك المغارة؟
- ماذا ؟
- هذه مكتبتنا حدثتك عنها مرة. تذكر. ماثلة امامي. لا أزال اهجس حفيف الورق واشم رائحته. ماثلة كما كانت منذ أكثر من عشرين عاماً، تلك المغارة الرطبة الداكنة، مختفية بين صخرتين كبيرتين، تنمو على مدخلها الطحالب الخضراء، وتتفتح شقائق النعمان، من كل لون.
وفي داخلها يستريح صندوق خشبي قديم سرقناه من البيت لنودع فيه كتبنا الصغيرة، ومجلاتنا ومنشوراتنا المنسوخة باليد. ذاك كان كنزنا. سرنا الفتي الغض. هويتنا الذي دلفنا بها الى العالم الكبير، أيام كان القلب في الجهة اليسرى يا موليير.
بين الجزيرة والجبل تجري مياه الفرات. أشجار النخيل الكثيفة والتين والزيتون. وفي طور سنين زرعنا سرنا، قبل ان نغادر ذلك البلد الأمين.
وعلى الضفة الرملية استلقيت ممدداً قدمي في الماء الذي اطعمته شمس الظهيرة دفئاً لذيذاً متماوجاً، ومنحه الشفق الواناً مذهلة تشبه النعاس في عيون طفل سود. تشبه الخدر في وجه امرأة بعيدة تنهض من رقادها اللحظة.
"حسناً"
قلت. أي ألق للماضي إذا لم ينهض الآن من رقدته الطويلة. على الرمل، حذاء اشجار الصفصاف، وامام الناعور المهجور، وكركرة المياه المتدفقة عبر السد الحجري الممتد بين ضفة النهر وضفاف الجزيرة الساكنة.
هنا. في هذه الزاوية من الأرض عرفت لاول مرة طعم ان يحب الفتيان.
وامامي، في تلك الدار المهجورة، امام البوابة الخشبية كنت ارتجف في ليالي الشتاء المقرورة، انتظر سكينة النوم تملأ عيون الراقدين تحت أغطيتهم الثقيلة، لا تلقى عطاء يوم من الانتظار بين زنديها ورفة ضفائرها الصبية، وارتعاش الشفتين.
هناك كان الوهم هو الحقيقة الوحيدة التي عرفتها بين محاولة الاكتشاف المحموم للعالم الغامض البعيد وبين الحياة اليومية التي لاطعم لها لولد شقي يريد ان يختصر المسافات.
كنت اترقب. أحس ان شيئاً ما سيأتي. ينبثق فجأة أمامي. من النهر؟ الجبل؟ الطرقات المترية. بين اشجار البساتين الداكنة. من الجدران الطينية في ظلمات ليالي الشتاء المدلهمة ؟ من المقابر في ليالي الصيف المقمرة؟
كيف سيأتي ذلك الشيء الذي لا اعرف له اسماً؟
سألتها ذات ليلة. رائحة ثوبها المبلول وطعم النعاس في عيونها، ونحن نلص قبلاتنا المذعورة منتصف الليل، قالت لي:
- انت خائف.
ضممتها برقة. بعنف.
- تخاف؟
- نعم.. نعم
- تخاف؟
- نعم
حكيت لها شيئاً.
- لقد شنقوا واحداً.
في تلك الليلة من شباط جاءت الاخبار، كان الرجال يسمرون في الديوان. يتلذذون بمرارة القهوة السوداء، ويلفون سجائر التبغ الرخيص. قالوا "شنقوا واحداً" قالوا "بل ثلاثة" من هم؟ لقد انبثقوا من السراب. من العدم. من مكان سري لا يعرفه احد. وضعوهم في السجن اولاً. في سجن بعيد. في سرداب عميق. ثم جاءوا بهم. دفعوهم على الدرجات الخشبية.
ثم تركوا اجسادهم تهوي. لقد ماتوا في تلك الليلة رأيت السلالم الخشبية والحبال المعقودة على الرقاب.. ولم استطع تمثل الوجوه قالوا انهم يلفون رؤوسهم بالاقنعة السوداء. لم استطع النوم. وداعاً ايتها الاشعار الجميلة في مجلات الاديب والرسالة والثقافة..
وداعاً ايها الصحو الجميل، ايتها العذوبة الكاذبة.
وعندما جاء صاحبي، صديق طفولتي السعيدة المفعمة والطافحة بالامل اخبرني.
- لقد شنقوا ثلاثة رجال في بغداد حدثني. في عيونه غضب مر "انتم هنا لا تعرفون شيئاً..

تذكرت المظاهرات التي شاركت فيها.. صبياً كنت

تذكرت المظاهرات التي شاركت فيها صبيا كنت .الوثبة. قالوا انها ضد الاستعمار ضد المعاهدة ذهبت الى بغداد والقيت قصيدة ساذجة في مقبرة ما حيث دفنوا بعض الشهداء وبعدها: فلسطين والجيش الزاحف عبر الجسر الحديدي في مدينة الفلوجة. القصائد والاهازيج الحارة المتدافعة. وجوه الجنود وصدور الرجال وزغردة النسوة والوعود الكثيرة. أحسست ان فلسطين قريبة ليست ابعد من الجسر كثيراً وما ان يصل الجيش الى هناك حتى ينتهي كل شيء وحينئذ سنملأ الساحة الواسعة المترامية بالسرادقات، ونوزع المرطبات والزهور ونحتضن اذرع الجنود العائدين الذين صنعوا النصر.
اما الآن. قال لي:
ف"انتم لا تعرفون شيئاً"
لقد انتهى سراب الفرح. أختفت الآمال واختنق النصر.
من هم؟
وهمس حسين صديقي العائد الى عنه في عطلته السنوية:
- انهم...
- ماذا؟
- قلت لك انهم شيوعيون، قادة الحزب الشيوعي.
- ولماذا شنقوهم اذن؟
- انت لا تعرف شيئاً رشدي.
اطرقت، بحزن، ربت على كتفي قريبي العائد من بغداد.
- انت تقرأ كثيراً اعرف انت وطني اعرف، وطني جداً، ولكن..

قريباً كنت من القافلة

في تلك الايام بدأت الرحلة
قريباً كنت من القافلة من الهمس الخافت بعيداً كنت منها وحيداً كنت صديق نفسي التواقة التي لا تعرف الى اين؟ اغرق بين الكتب والمجلات التي توفرها المكتبة العامة المتواضعة في تلك المدينة الممتدة اعالي الفرات ارتقي صخور المرتفعات التي ندعوها جبالاً واجذف في النهر واعبر الى الجزر الرملية الساحرة واقرزم الشعر، واغرق كل ليلة بعيون فتاتي السمراء التي تنتظر رقاد اهلها لنلص في منتصف الليالي قبلاتنا الملتهبة الشبقة.
لقد وجدت نفسي فجأة. هكذا خيل الي. التقيت بذلك اللهب الراقد في اعماقي.
❖ وماذا كانت استبصاراتي الماضية؟
- انها اذا استعدت، وفق اكثر ما استطيع من وضوح لا تزيد عن محاولة صبية، غضة للركض باقصى سرعة، وبأيسر ما كان بين يدي لمعرفة العالم كان التوق الى المعرفة المبكرة، عذاباً يومياً، ولكن- على قدر ما اتذكر- كان عذاباً سعيداً الى حد الذهول.

لقد كنت طفلاً في أسرة متواضعة

لقد تميزت طفولتي بعيداً عن الادعاء بنوع من التألق غير الاعتيادي في وسط اجتماعي محدود مغلق واشبه بالبدائي.
لقد كنت طفلاً مدللاً في اسرة متواضعة ولانني كنت الطفل الاول لأبي وامي، والطفل الاول، لدى اخوالي الذين لم يكونوا قد تزوجوا.
ان أبي وقد اعطي هذه الهبة النادرة التي هي انا، اراد ان يصنع منها شيئاً نفيساً. لقد حلم –هكذا اتذكر- ان يغدو هذا الطفل الذكي الجميل، هذه اللعبة المتقنة الصنع، شخصاً مرموقاً وفذاً!
وبالطبع فان الهالة التي احيطت بها طفولتي، كانت ترشحني في نظر أبي على الاقل، لان اقتحم العالم، من بوابة الوظائف العامة التي ستفضي بي، دون ريب، الى ان احتل كرسياً في مجلس النواب، قبل ان اغدو وزيراً، وربما رئيساً للوزراء ذات يوم من يدري؟؟؟!
فبعد ان زرعني في هذا العالم، زرع في أبي حباً لافكاك منه ابداً، للشعر والتاريخ والسياسة لقد ظل هذا قدري.
غير ان الشيء الاكثر عمقاً وتأثيراً، من كل ما عداه هو غرس الروح الوطنية العالية الجامحة التي تقرب من الهوس. انني لابتسم حتى الان بحنان لاحد له، وبامتنان عميق عندما اتذكر بمرح كيف كان يحلو لأبي، خصوصاً عندما يشرب، ان يسمعني قصيدة ما، او يستمع إلي، وانا اهدر بمقطوعة شعر حماسية، او ألثغ بقصيدة تنوح على الاطلال!
طفولتي هيأت لي فرصاً طيبة، كان مزاجي الخاص المتفتح والطليق، يسعفني دائماً في استثمار ألذ ما فيها.
ان الالتذاذ هنا بمعنى انني كنت استطعم ايام طفولتي: الذهاب الى المدرسة وحب المعلمات في روضة الاطفال بمدينة الرمادي، والمجلات المصورة، واحاديث ابي مع ضيوفه، وثرثرة النسوة الزائرات وفيما بعد الاشتراك في الحفلات المدرسية: التمثيليات وحفلات الخطابة والالقاء وفي مرحلة لاحقة، القراءة الشغوف لكل ما تصل اليه يدي.
ذاك زمان، ورحم الله عمر فاخوري، كنا نسكر فيه بزبيبة.
واذن!
فلم يكن ذاك قدري فقط، انه اختياري، كما يقول كولن ولسن، اختيار محض بعد طواف مشتت.
لقد تساءلت، بضراوة الشباب وحيويته ويأسه احياناً، اين الدرب؟
وبدأت، اكتشف ببطء، بصبر، بشيء من المشقة وكثير من روح الارتياد حياتي بدأت مساراً جديداً.
وبهذا الاكتشاف كنت شقياً وسعيداً ان لي قدرة لاحد لها على العطاء. هكذا تخيلت وهو العطاء الذي يفوق في مدى ما يمنح من سعادة داخلية كل ما يمكن ان انوء به مستقبلاً من عذاب وعنت.
ان قدرة لا نهائية، قدرة غير محدودة على الحب، كانت هي الزيت الذي امد هذه الآلة البشرية المعقدة بالطاقة وهو –زيت الحب هذا- ما منع الآلة من التآكل والصدأ حتى الان.
متعبة هي الخطوة الاولى متعبة وحاسمة في طريق الانسان.
ومنذ البداية فكرت انها ليست لعبة انها عملية شاقة. تحول كامل، ونهائي هذا الذي وجدت نفسي فيه، بعد جلسات طويلة مع حسين، ومع من أبقتهم العاصفة الغبراء التي اجتاحت صفوف الحزب الشيوعي بعد اعدام قادته الثلاثة ووضع قيود السجن الطويل في معاصم الكثيرين من قادة وكوادر الحزب.

مع الأغنية الجديدة بدأت حياة جديدة

لقد بدأت الاغنية من جديد واستطاع الحزب لعق الجراح ولملمة ما تبقى، وعاد الى العمل ومع الاغنية الجديدة بدأت حياة جديدة.
لا ازال اتذكر الكراسات التي كان قسم ممن ابقت عليهم العاصفة في مدينتي النائية، يحتفظون بها سراً، قبل ان تبدأ جريدة "القاعدة" بالوصول الينا، منسوخة باليد.
ومع بداية العام الدراسي الجديد، كنا نشكل اول حلقة طلابية بمبادرة ذاتية اخذنا مسؤوليتها على عاتقنا.
لا اتذكر الآن كيف عرفنا بعضنا، كيف التقينا كيف تهامسنا، في طريقنا الى المدرسة الثانوية، في عودتنا منها، في الدروب المترية المتعرجة وفي البساتين ما اتذكره اننا وجدنا انفسنا معاً واننا اوجدنا بطريقة ما صلة ببعض المعلمين من ابناء مدينتنا –القرية وبمدرس جاءنا من بغداد والتحق مدرساً للفيزياء في مدرستنا الثانوية.